لكن بالطبع لم يخبر المعزين الآخرين؛ فكيف يمكنه أن يشرح صلة جيكل بالأمر، ولا سيما وهو يشعر أنه هو أيضًا قد أخفيت عنه أشياء كثيرة.

في الليلة التالية للجنازة مكث أترسون وحده في غرفته. جلس إلى جانب ضوء شمعة واحدة، وأخرج مظروفًا من جيبه، كان قد سلمه إياه محامي لانيون بعد الجنازة، وكان مكتوبًا عليه: «يُسلم إلى جي جيه أترسون وحده. إذا عشت أنا دكتور لانيون إلى ما بعد مستر أترسون، يجب تدمير هذا الخطاب «دون أن يقرأه أحد».» فضّ أترسون ختم المظروف بكل ثقة، وبالداخل وجد مظروفًا آخر مختومًا ومكتوبًا عليه: «لا يُفتح حتى يموت دكتور هنري جيكل أو يختفي.» صدمت هذه الكلمات أترسون، فهي نفس الكلمات التي استخدمها جيكل في وصيته الغريبة بشأن مستر هايد. كانت الكلمات المكتوبة على المظروف بخط يد دكتور لانيون. لماذا يهتم لانيون باختفاء جيكل؟ ولماذا ارتاب لانيون من الأساس في أن جيكل قد يختفي يومًا ما؟ ولمّا كان أترسون صديقًا جديرًا بالثقة ومحاميًا، وضع المظروف المختوم في أبعد ركن في خزنته. وتمنى ألا يأتي أبدًا اليوم الذي يضطر فيه أن يفتحه. فقد خشي أن تكون الحقيقة صادمة للغاية على أن يتحملها.

استمر أترسون يتردد على جيكل لكن على فترات متباعدة. وكان لا بد أن يقر المحامي لنفسه أنه عادة كان يشعر بالراحة عندما كان بول يصرفه. فقد استكن أترسون في نمط حياة جديد ووجد فيه الراحة؛ إذ علم أترسون أن قلقه بشأن جيكل سيقل إذا انشغل على الدوام.

في واحدة من زياراته إلى منزل جيكل، سأل بول هل الطبيب يشعر بأي تحسن. فأخبره الخادم أن ظهور سيده حتى في داخل المنزل بدأ يقل باطراد. لاحظ أترسون أمارات القلق على بول.

قال بول: «إنه يقضي معظم وقته في الغرفة التي تعلو المختبر. بل عادة ما ينام دكتور جيكل هناك. أنا أترك له الطعام على باب الغرفة ثم أعود في وقت لاحق كي آخذ الأواني الفارغة.» وبدا على بول أنه يريد أن يفصح عن المزيد، إذ تلجلج في بعض الكلمات، ثم توقف، لكنه قال في النهاية: «سأخبر سيدي أنك كنت هنا.»

شكر أترسون بول وغادر. وكان واضحًا أن القلق استبد به بشأن صحة جيكل وكم الوقت الذي يقضيه جيكل في عزلة. وقد اندهش أترسون لدى علمه بأنه حتى خدم الطبيب نادرًا ما يرونه. وتساءل أترسون: هل فقد صديقه الطيب إلى الأبد؟

الفصل الثالث عشر

حادثة في الشرفة

على الرغم من الأحداث الغريبة التي وقعت خلال الأشهر الماضية، فلم يفوّت أترسون قط نزهة يوم الأحد بمعية مستر إينفيلد، فقد كان المحامي يستمتع استمتاعًا بالغًا بهذه العادة. وجاءت عليه أوقات شعر فيها بأن اتصاله بالعالم من خلال هذه النزهة هو الذي حفظ سلامته العقلية. فقد كانت حياته مُربكة وصعبة للغاية بسبب قلقه على صحة جيكل. كانت هذه النزهات تذكره بالأوقات التي كانت فيها حياته طبيعية. لقد افتقد نمط حياته اليومي إذ أنهكه بشدة القلق الشديد على صديقه. تمنى أترسون أن تعود حياته إلى سابق عهدها البسيط؛ يقضي الأمسيات الهادئة في منزله وحفلات العشاء بمعية أصدقائه. وتمنى أن يتحسن جيكل عما قريب.

في إحدى النزهات، تصادف أن مر أترسون وإينفيلد مرة أخرى بالباب الذي بدأت عنده القصة. خطا كلاهما لينظر إليه. وكان الباب لا يزال بحاجة إلى طبقة من الطلاء وكان قفله محُطمًا. وقد بدا كأنما حاول أحد أن يفتحه بالقوة. وأخذ يفكر مستر أترسون كم تغيرت حياته منذ أن أراه إينفيلد هذا الباب للمرة الأولى. وعلى نحو غريب، شعر أترسون بالمسئولية. ومع أنه كان على دراية بأن هذا غير منطقي، فقد تساءل هل مجرد سماعه للقصة هو الذي أدى إلى كل الأحداث التي توالت بعدها؟ لعل سعيه وراء هايد وبحثه عن إجابات قد سبب الأذى لدكتور جيكل أكثر مما نفعه. لعل هايد سبب المتاعب لجيكل الذي ربما لا يزال يعاني الآثار السيئة لانتهاكات هايد وابتزازه. وبدأ أترسون يتعلم أن يسلم بأنه قد لا يعرف الحقيقة أبدًا.

قال مستر إينفيلد: «حسنًا، على الأقل انتهت هذه القصة. ولن نسمع أبدًا عن مستر هايد.» وكان المواطنون في لندن لا يزالون يتحدثون عن اختفاء هايد. ولم يلمح له أحد ظلًّا منذ مقتل سير دانفرز كارو. واعتقد كثيرون من الصحفيين أنه غادر إنجلترا.

وراجت الإشاعات برؤيته في ألمانيا وفرنسا. وفي واحدة من الإشاعات ذُكر أنه وصل إلى أبعد مكان ممكن، إلى الصين، لكن لم يكن هناك دليل على ذلك. ظن آخرون أن المجرم هرب إلى أسكوتلندا. وكان هناك أيضًا من يظنون أنه لا يزال في لندن، وكانوا على قناعة بأن هايد ينتظر اللحظة المناسبة حتى يعود ويهاجم ضحيته التالية.

قال أترسون: «أتمنى أن تكون على صواب. ألم أخبرك قط أنني التقيته في إحدى المرات؟ وقد شعرت بالاشمئزاز مثلك بالضبط.»

أجاب إينفيلد: «أظن أنه يستحيل ألا تنتاب المرء مشاعر الاشمئزاز هذه. وبالمناسبة، أود أن أعتذر لك عن أنني لم أنتبه سريعًا إلى أن هذا الباب هو المدخل الخلفي المؤدي إلى منزل دكتور جيكل. لقد علمت أنه كان صديقك العزيز بالطبع، لكنني لم أدرك فيما كنت أروي على مسامعك هذه القصة المزعجة أن هذا المنزل هو منزل جيكل. أنا في غاية الأسف إذا كنت قد أسأت إليك.»

قال أترسون: «لا عليك. لا بد أن أخبرك أن القلق يستبد بي بشأن جيكل، فهو ليس على ما يرام منذ فترة. أتمانع في أن ندخل إلى ساحة فناء منزله؟ أود أن ألقي نظرة عبر النوافذ.»

أجاب إينفيلد: «بكل سرور. لعلنا نستطيع أن نشجع جيكل على أن ينضم إلينا في نزهتنا. فكلما زاد العدد زادت البهجة.»

كان الفناء باردًا ورطبًا قليلًا. ومع أن شمس ما بعد الظهر كانت لا تزال مرتفعة في كبد السماء، فإن ظلال المغيب غشيت الفناء. وقد حرص العاملون لدى دكتور جيكل على تنظيف الفناء والاعتناء بالأزهار، فكان الفناء عادة مليئًا بالنباتات الخضراء والأزهار الملونة. وكان أترسون قد أمضى الكثير من أوقات ما بعد الظهر بمعية جيكل في الفناء يتحدثان لساعات. غير أنه في هذا اليوم، بدا الفناء موحشًا من الإهمال حيث تحول لون الأشجار إلى اللون البني من قلة الماء، ولم تكن هناك أي أزهار لينعم بها الناظر، وقد نمت الحشائش والأعشاب الضارة حول الأحجار في الممشى. وكان وعاء الماء الخاص بالطيور فارغًا. رأى أترسون أن هذا نذير شر، فما كان جيكل ليسمح قط أن يبدو الفناء غاية في الفوضوية إن كان سليمًا وسعيدًا.

رفع الرجلان بصرهما إلى النوافذ التي تعلو المختبر، فكانت النافذة الوسطى مفتوحة قليلًا. وكان دكتور جيكل يجلس بالقرب منها غائصًا في أحد المقاعد.

نادى أترسون: «مرحبًا جيكل! أراك أفضل حالًا الآن، أليس كذلك؟»

التفت الطبيب بتؤدة نحو الصوت الآتي من الفناء، وقد بدا متحيرًا كأن لم يكن يعلم بأن هناك عالمًا خلف نافذته. رقت عين جيكل فيما تعرف على صديقه القديم.

رد الدكتور في حزن: «أنا مكتئب للغاية يا أترسون. مكتئب بحق. حمدًا لله، لن يدوم هذا طويلًا.»

قال المحامي: «أنت تمضي الكثير من الوقت داخل المنزل، يجدر بك أن تمارس بعض التمارين الرياضية. لماذا لا تنضم لي أنا ومستر إينفيلد في نزهتنا؟ هل التقيت ابن عمي مستر إينفيلد من قبل؟ هيا، ارتد قبعتك واخرج.»

قال جيكل: «أنت طيب للغاية. كان بودي أن أفعل هذا، لكن هذا مستحيل بالمرة. لا أجرؤ على الخروج.» وحاول دكتور جيكل أن يبتسم واسترسل قائلًا: «يسعدني أن أراك بالرغم من كل هذا. يسعدني أيما سعادة. كنت أود أن أدعوك أنت ومستر إينفيلد للصعود، لكن المكان غير مناسب للزوار بالمرة.»

رد إينفيلد: «لا نريد بالطبع أن نزعجك يا دكتور جيكل. لقد أخبرني ابن عمي كثيرًا عنك حتى إنني كنت أتوق إلى زيارتك.»

أجاب جيكل وقد بدا عليه الأسف الشديد بالفعل: «يؤسفني بشدة أنني خيبت أملك. يؤسفني أنه ضاعت علينا الفرصة أن ينعم كل منا بصحبة الآخر.»

قال أترسون: «إذن أفضل ما يمكن فعله هو أن نمكث بالأسفل هنا ونتحدث إليك.» وقد حاول المحامي أن يبدو سعيدًا مبتهجًا.

أجاب الطبيب بابتسامة واهنة: «كنت أنوي أن أقترح نفس الشيء.» لكن الكلمات كانت تخرج من فمه بشق النفس قبل أن تختفي ابتسامته ويعقبها سريعًا تعبيرات الفزع التام. أغمض جيكل عينيه بإحكام، وانقبض وجهه، وبدا في ألم شديد. شاهده الرجلان في فزع وقد تحول جلده إلى اللون الرمادي. غطى جيكل وجهه بيديه، واستدار بعيدًا عن النافذة وانحنى. وسمع الرجلان تأوهًا خفيضًا فيما اختفى جيكل تحت إطار النافذة.

صُدم الرجلان اللذان كانا يقفان في الفناء مما شاهدا. حاول أترسون أن ينادي على صديقه، لكن لم يأته أي رد. وكان أترسون مصدومًا ومرعوبًا قليلًا. بعدها بلحظة أُسدل الستار فوق النافذة سريعًا. لم يكن في وسع الرجلين أن يفعلا شيئًا، لذا رحلا في الحال دون أن يتفوها بكلمة أخرى.

ظل الرجلان صامتين طيلة بضعة مبانٍ. أخيرًا نظر أحدهما إلى الآخر، كلاهما شاحب الوجه. أراد أترسون أن يتحدث عما رأياه لتوهما. ما الذي حلّ بجيكل فيما

كان جالسًا إلى جانب النافذة؟ أي نوع من الأمراض هذا الذي سبب مثل هذا التغيير الرهيب في مظهره؟ لا بد أن هذا أكبر من مجرد توتر بسيط. وتساءل المحامي هل سُم صديقه؟ كان أترسون يعلم أن العاملين عند جيكل ما كانوا ليؤذوه البتة. ثمة شخص واحد فحسب يمكنه أن يمثل هذا الخطر. أيعني هذا أن هايد لا يزال قريبًا؟ أما يزال يسيطر على جيكل؟ إن الشيء الوحيد الذي يعرفه أترسون معرفة أكيدة الآن هو أنه ومستر إينفيلد قد شاهدا لتوهما شيئًا بشعًا. لم يتمكن أترسون إلا من أن ينبس ببضع كلمات: «ليسامحنا الله. ليسامحنا الله.»

لم يكن من مستر إينفيلد إلا أنه هزّ رأسه في جدية. إذ لم تكن هناك كلمات لتصف ما حدث. وعلم إينفيلد أنه لن يصدقه أحد إذا حاول أن يصف ما حدث. واصل الرجلان سيرهما مرة أخرى في صمت.

الفصل الرابع عشر

الليلة الأخيرة

تملك الرعب من مستر أترسون بسبب ما رأى في النافذة ومع ذلك شعر بأنه عاجز عن أن يفعل أي شيء من أجل المساعدة. وفعل كل ما بوسعه كي يطرد الصورة عن ذهنه. غير أنه في ليلة من الليالي فيما كان جالسًا إلى جانب المدفأة بعد العشاء، فوجئ ببول يزوره.

صرخ أترسون: «يا إلهي! ما الذي أتى بك إلى هنا يا بول؟ هل دكتور جيكل مريض؟»

قال الخادم لاهثًا: «مستر أترسون، هناك شيء مروع للغاية.» تساءل مستر أترسون هل جاء بول كل الطريق راكضًا؟

كان بول شديد التوتر، فقدم له أترسون مقعدًا وقال له: «من فضلك اهدأ.»

رد بول: «أنت تعلم تصرفات الطبيب يا سيدي، أنت تعرف أنه معزول عن العالم وأغلق على نفسه المكتب الذي يعلو المختبر، وأنا في غاية القلق عليه. الأمر أكثر سوءًا هذه المرة. مستر أترسون، أنا أخشى على سلامة سيدي. أظن أنه في خطر بالغ.»

سأله مستر أترسون: «ما الذي تخشى منه على وجه التحديد أيها الرجل الطيب؟»

أجاب بول: «تساورني المخاوف منذ أسبوع تقريبًا. ولا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك.» هزّ الخادم رأسه في إحباط، ولم يستطع أن ينظر إلى أترسون في عينيه. جلس بول ثم وضع يديه على ركبتيه حتى يمسكهما عن الاهتزاز وكرر: «لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا.»

قال أترسون: «بول، لا بد أن تخبرني بكل شيء. لماذا أنت خائف للغاية على دكتور جيكل؟»

أجاب بول بصوت أجشّ: «أظن أن ثمة جريمة.»

صرخ أترسون: «جريمة!» ثم انتفض من مقعده، وتسارعت نبضات قلبه وقال: «ماذا تقصد؟»

أجاب بول: «لا يمكنني أن أجزم يا سيدي. لكن هل تتفضل وتأتي معي وترى بنفسك؟»

لم يجبه مستر أترسون وإنما انتزع معطفه وقبعته في عجالة. لاحظ أترسون انفراجة على وجه بول، فوضع يده على كتفه وقال له: «سنسبر غور الأمر.» وعندئذ غادر الرجلان.

كانت الليلة موحشة وشديدة البرودة. أمسك الرجلان بقبعتيهما حتى لا تطيرا من شدة الريح. وكانت الأتربة والرمال تطير في دوامات في الهواء. واندفعت الأشجار الرفيعة بعنف نحو السياج. ما كان ليتحمل مثل هذا الطقس الكريه سوى عدد قليل من الناس، من ثم كادت تخلو الشوارع من المارة. رأى أترسون أن الشوارع لم تبد مهجورة بشدة هكذا قط، وشعر أيضًا أن ثمة شيئًا سيئًا وشيك الحدوث. عرف أترسون أن هذا المساء سيحمل شيئًا فظيعًا؛ خاف أترسون من أن يكون دكتور جيكل قد مات.

عندما بلغا منزل جيكل، نزع بول قبعته على الرغم من البرد الشديد كي يمسح العرق الذي كان يتصبب من حاجبه لأنه كان يسير طول الطريق في عجالة لكنه توقف الآن. قال بول بصوت أجش وحزين: «حسنًا سيدي، ها قد وصلنا. أدعو الله أن يكون كل شيء على ما يرام بالداخل.»

أجاب أترسون: «بإذن الله يا بول.»

قرع بول الباب الأمامي بشفرة معينة: ثلاث طرقات سريعة ثم طرقتين بطيئتين. فُتح الباب لبضع بوصات فحسب وأطل منه وجه، وجاء صوت امرأة يقول: «هل هذا أنت يا بول؟»

قال بول: «كل شيء على ما يرام. افتحي الباب.»

دخل أترسون وبول الردهة الأمامية التي أضاءتها النيران المستعرة. فوجد جميع الخدم بالمنزل جاثمين معًا كأنهم قطيع من الماشية. أجهشت واحدة من الخدم في البكاء لدى رؤيتها مستر أترسون. قالت الطباخة: «إنه مستر أترسون!» ثم ركضت نحوه وطوقت عنقه.

سأل مستر أترسون: «لماذا أنتم مجتمعون كلكم ههنا؟» وقد بدا عليه التوتر؛ فما كان يجدر بالخدم أن يتجمعوا إلى جانب المدفأة في الردهة الأمامية.

أجاب بول: «جميعهم خائفون.»

لم يُسمع صوت في الحجرة، فقط تعالت تنهدات الخادمة فوق صوت طقطقة النيران.

قال بول لأحد الغلمان بصوت حاد: «جيرمي، أعطني بعض الشموع. لا بد أن نتخذ موقفًا في الحال.» وكان من الواضح أنه فقد أعصابه.

أخذ بول شمعتين من جيرمي وأعطى واحدة لمستر أترسون وقال له: «تفضل. هل تتبعني من فضلك؟» عندئذ تقدمه الخادم داخل المنزل ومنه إلى الفناء.

الفصل الخامس عشر

قصة بول

همس بول وهما سائران: «لا بد أن أطلب منك سيدي أن تلتزم الصمت. أظن أنه من الأفضل ألا يعرف أنك هنا. من الأفضل أن تسترق السمع.»

قال أترسون: «أتفهم يا بول.» عسر على المحامي أن يمنع يده عن الارتعاش. سقطت قطرات الشمع على يده، لكنه لم يصدر أي صوت.

ارتقى السلالم وراء بول إلى أعلى المختبر. وأشار بول إلى أترسون بأنه ينبغي أن يقف جانبًا ويسترق السمع. أخذ بول نفسًا عميقًا، ثم قرع الباب بيد مرتخية قليلًا.

نادى بول من وراء الباب: «سيدي، جاء السيد أترسون ليراك.»

أجاب صوت مرتعش من الداخل: «أخبره أنني لا أستطيع أن أرى أحدًا.»

أجاب بول: «أشكرك يا سيدي.» وقد بدا راضيًا من ردّ الصوت عليه. ثم بدأ يعود أدراجه نازلًا السلم، وتبعه أترسون.

وعندما بلغا الفناء مرة أخرى، التفت بول إلى المحامي وقال: «الآن أخبرني يا مستر أترسون، هل كان هذا صوت سيدي؟»

أجاب أترسون وهو شاحب الوجه للغاية: «يبدو أنه تغير كثيرًا.»

قال بول: «قطعًا أظن ذلك. أمن المعقول أنني أعمل في هذا البيت لمدة عشرين عامًا ولا أعرف صوت سيدي؟ لا يا مستر أترسون. هذا الصوت ليس صوت سيدي. لقد حلّ به شيء ما، أو أنه أُخذ بعيدًا. مرت ثمانية أيام الآن وأنا في حيرة من أمري.»

قال أترسون: «هذا أمر في غاية الغرابة يا بول. هذه قصة غير معقولة يا رجل. لنفترض أنك على صواب وأن دكتور جيكل قُتل أو خُطف. لماذا سيمكث الجاني في الغرفة؟ لماذا لا يهرب؟»

قال بول: «إنك لرجل يصعب إرضاؤه يا مستر أترسون، ولكنني سأبذل قصارى جهدي كي أقنعك. طيلة الأسبوع الماضي، ظل من كان محبوسًا بداخل المكتب يصرخ ليل نهار من أجل دواء معين. يكتب طلبات أدوية على ورق ويتركها على السلم. استمر هذا الموضوع طيلة الأسبوع الماضي، لم يكتب ورقة أو ورقتين وإنما عشرات الأوراق. ذهبت إلى الصيدليات في كل أنحاء المدينة أحضر الطلبات وأقدم الشكاوى؛ ففي كل مرة أعود بالدواء يخبرني أنه ليس نقيًّا، ويأمرني بإرجاع الدواء والذهاب إلى صيدلية أخرى. لا أعرف هذا الدواء مطلقًا، لكنه يريده باستماتة.»

سأله أترسون: «هل لديك أي من هذه الأوراق؟»

وضع بول يده في جيبه وأخرج ورقة مجعدة. انحنى المحامي فوق شمعته وفحص الكتابة بعناية، فكان مكتوبًا فيها التالي: «أنا أعيد إليكم هذا الدواء المُشترى منكم لأنه غير نقي ومن ثم غير نافع لي. لقد اشتريت كمية كبيرة منه منذ بضع سنوات. أنا في أمس الحاجة إليه ومضطر أن أطلب منكم أن تتفقدوا مصادركم بعناية للعثور على عينة نقية ومناسبة. أنا عاجز عن وصف مدى أهمية هذا الدواء.» أكثر ما أزعج أترسون في المكتوب هو آخر سطر. وكانت هناك بقعة من الحبر سقطت فجأة على الورقة فيما اشتدت انفعالات كاتبها، وهذا ما جاء في السطر الأخير: «أتوسل إليكم، أرجوكم اعثروا لي على الدواء القديم.»

قال أترسون: «هذه ورقة غريبة» ثم قال بنبرة أكثر حدة: «لماذا هي مفتوحة؟» بدا أن أترسون سيدافع عن صديقه جيكل حتى النفس الأخير. ومع أنه كان مدركًا أن بول يحاول أن يساعد فحسب، فقد ارتاب في أن بول فتح الأوراق الخاصة.

أجاب بول: «غضب أحد الصيادلة غضبًا شديدًا حتى إنه رماني بها.»

سأل أترسون: «أتستطيع أن تميز أن هذا خط يد دكتور جيكل؟»

أجاب الخادم: «أجل، يبدو خط يده.» أفشى الخادم ما بداخله من غير تدبر ووجهه أكثر تجهمًا: «لكن ما نفع هذا وقد رأيت الرجل الذي كتب هذا؟»

قال أترسون: «أرأيته؟ أين؟ ومتى؟»

قال بول: «نزلت بغتة إلى الحديقة، وقطعًا خرج هو ليأخذ الدواء. رأيته يقف بالطرف الآخر من الفناء يتفقد الصناديق. عندما رآني صرخ صرخة حادة وركض نحو السلم. رأيته لبضع دقائق فحسب، لكنني ارتعدت لدى رؤيته. من شدة الهلع وقف شعري بالفعل. مستر أترسون، إن كان هذا سيدي، لماذا يصرخ مثل الفأر ثم يفر هاربًا؟» مرر بول يده على وجهه في إحباط بالغ.

قال أترسون: «قصص غريبة تمامًا. لكن أعتقد أنني بدأت أفهم. لا بد أن سيدك يعاني نوعًا من الانهيار العصبي مما يفسر التغير الذي طرأ على صوته وتحاشيه لأصدقائه. لا بد أنه على قناعة بأن هذا الدواء الغامض سيشفيه من علته. أتمنى أن يكون على صواب في هذا الاعتقاد ونتمكن من معالجته.»

قال الخادم: «مستر أترسون، المخلوق الذي في المكتب ليس سيدي، هذا كل ما في الأمر!» نظر بول حوله ثم بدأ يهمس: «سيدي طويل القامة، وحسن البنية، في حين أن هذا الشخص أقصر وأحدب. أتظن أنه بعد كل هذه السنوات لا أعرف إلى أي ارتفاع تصل رأس سيدي عند ممر الباب؟ أتظن أنني لا أعرف وقع أقدامه؟ لا يا سيدي، هذا الشيء لم يكن — وليس — دكتور جيكل. أنا متأكد من أن سيدي قُتل.»

قال أترسون: «بول، هل أنت متأكد تمامًا مما تقول؟» أخذ أترسون يتصبب عرقًا، إذ يصعب تحمل فكرة أن أقدم وأعز أصدقائه قُتل. أومأ الخادم بتؤدة. قال أترسون: «إذن ليس أمامنا سوى خيار واحد؛ أن نكسر الباب.»

الفصل السادس عشر

على الجانب الآخر من الباب

وافق الخادم تمامًا، وصرخ: «أوه، يا مستر أترسون، هذا هو الكلام!»

سأل أترسون: «كيف يجدر بنا أن نتعامل مع الموقف؟ أينبغي أن نسلح أنفسنا؟ لا يمكن أن نعرف ما قد نعثر عليه بداخل المكتب.»

أومأ الخادم برأسه وقال: «ثمة مضرب كروكيه في الورشة. هل لي أن أقترح عليك أن تأخذ قضيب المدفأة يا سيدي!»

فكر أترسون لبرهة أنه قد يضحك، فقد كان شديد التوتر وعسر عليه أن يصدق الموقف الذي هو بصدده الآن الذي بدا كأنه فقرة من رواية مغامرات. بمقدور أترسون أن يجزم أنه لم يمر بتجربة مماثلة في حياته قط. بالطبع لم يكن هذا هو ما قد تصوره من أجل قضاء أمسيته أو من أجل مصير صديقه الطبيب دكتور جيكل.

قال أترسون: «أمدرك يا بول أننا على وشك أن نضع أنفسنا في موقف به شيء من الخطر؟»

أجابه الخادم: «أتفق معك يا سيدي.»

قال أترسون: «يجدر بنا أن يصارح بعضنا بعضًا الآن. هل تعرفت على الرجل الذي رأيته في الفناء؟»

أجاب بول: «من الصعب الإقرار بهذا. وقع الأمر برمته على جناح السرعة. وقد كان منحنيًا عندما رأيته، من ثم لا أستطيع أن أجزم. لكن إذا كنت تسألني هل كان مستر هايد أم لا، عندئذ سأقول لك نعم، لقد بدا شبهه إلى حد بعيد. أكره التفكير في هذا، لكن هذه هي الحقيقة.» ثم سأل بول المحامي: «هل التقيت مستر هايد من قبل؟»

أجاب أترسون: «بلى، تحدثت إليه مرة.»

– «إذن أنت تعرف ردة الفعل التي تتولد عند الأشخاص لدى رؤية مستر هايد.»

أجاب أترسون: «أعرفها جيدًا. لقد ارتعدت فرائصي فعليًّا.»

همس بول: «أعرف أن هذا ليس دليلًا، لكن عندما رأيت هذا المخلوق يقلب في الصناديق، انتابني نفس رد الفعل؛ تجمدت عند رؤيته.»

تنهد أترسون: «آه، أخشى أن تكون على صواب. إن كان مستر هايد هو الذي رأيته، عندئذ لا مفر من أن هنري جيكل مات بلا ريب. حسنًا، إذن لنتحرك!» ارتجف قلب المحامي وسرعان ما تلاشى أمله في أن يجد صديقه سالمًا آمنًا.

اقترح أترسون: «ربما يجدر بك أن تستدعي برادشو البواب كي يقف حارسًا، قد نحتاج المزيد من المساعدة.»

وافق بول وركض عائدًا إلى المنزل، وبعدها ببضع لحظات وصل برادشو شاحبًا متوترًا. ومع أنه رجل ضخم البنية، كان ارتعاده جليًّا؛ كان يتصبب عرقًا ويقدم رجلًا ويؤخر أخرى في توتر، وقد وضع يديه في جيبه كي لا يلحظ الرجلان الآخران ارتعاشهما.

قال أترسون: «تمالك نفسك يا برادشو. سأذهب أنا وبول كي نكسر باب المكتب. لا نعلم ما قد نعثر عليه، أو ماذا قد يحدث. هناك احتمال أن يحاول المجرم الهرب. أتمانع في أن تقف حارسًا عند الباب الخلفي من فضلك؟» أومأ برادشو برأسه إيجابًا. فقال أترسون: «جيد. أمامك بضع دقائق لتصل إلى هناك.» ثم صافح أترسون برادشو قبل أن يمضي.

ظل الرجلان في سكون. نظر أترسون إلى سماء الليل معجبًا بالنجوم والسماء. فكر أترسون في نفسه: «إنها رائعة بحق. في الحياة الكثير من الالتواءات والمنعطفات لكن النجوم جميلة دائمًا.» بعد دقائق معدودات أخذ أترسون نفسًا عميقًا.

قال أترسون: «والآن يا بول لا بد أن نشرع في مهمتنا.» سار الرجلان في الفناء وشمعتاهما تتراقصان مع الرياح. وفيما كان يرتقيان السلم، تناهى إلى مسامعهما وقع أقدام في أرضية المكتب.

قال بول: «هو على هذا الحال ليل نهار، ولا يتوقف عن تذرع المكان ذهابًا وإيابًا إلا عندما يصل دواء جديد. وعندئذ حالما يدرك أن المزيج ليس صحيحًا، يبدأ في تذرع المكان من جديد.»

سأل أترسون: «أهذا هو كل ما تسمعه؟»

أجاب بول: «سمعت عويلًا في مرة من المرات يا سيدي. عويلًا كعويل النساء أو كشخص يحتضر.»

استجمع الرجلان شجاعتهما على باب المكتب. أحكم أترسون قبضته على قضيب المدفأة بكلتا يديه وصرخ بصوت مرتفع: «جيكل! آمرك أن تريني نفسك!» ثم انقطع عن الكلام هنيهة، لكن لم يكن هناك من مجيب. استرسل أترسون قائلًا: «لقد حذرتك. حتمًا ولا بد أن نراك، أيًا كانت الطريقة، وما لم يكن برضاك فسنضطر إلى استخدام القوة.»

أجاب الصوت: «أترسون، أرجوك ارحمني!»

صرخ أترسون: «هذا ليس صوت جيكل، إنه هايد! اكسر الباب يا بول!»

استخدم بول فأسًا كي يكسر قفل الباب. أصدرت الضربة الأولى صوت ارتطام مرتفعًا، أما الضربة الثانية والثالثة فقد حركتا الباب بعض الشيء. وكان يُسمع من الداخل صوت عواء مرعب كأنما حيوان يواجه خطرًا. تبادل أترسون وبول النظرات عمدًا. فهجما على الباب بعد أن استعادا قوتهما وعزمهما مرة أخرى. ولم ينكسر الباب إلا بعد الضربة الخامسة.

أطل الرجلان داخل الغرفة خائفين مما قد يريان. ولدهشتهما رأيا غرفة مليئة بالنيران والدفء، وغلاية تغلي فوق ألسنة النيران، وفناجين الشاي مُعدة. وكانت هناك بطانية موضوعة على أحد المقاعد وكتاب مفتوح على الطاولة كما لو كان أحد يجلس هناك حديثًا، وبعض الأدراج مفتوحة وأوراق مكدسة بنظام فوق الطاولة. كانت الغرفة تبدو كمعظم الغرف العادية في لندن فيما عدا بعض المواد الكيميائية والأدوية الموضوعة على الأرفف والجثة الملقاة على السجادة.

الفصل السابع عشر

داخل المختبر

سار أترسون وبول بحذر على أطراف أصابع أقدامهما بالقرب من الجثة، ثم قلباها فإذا بوجه إدوارد هايد، الذي كان يرتدي ملابس فضفاضة للغاية من الواضح أنها تخص دكتور جيكل. كان هايد ميتًا، وما زالت يده الهامدة تقبض على قارورة فارغة، كان أترسون على دراية بأنها احتوت على سم؛ من الجلي أنها حالة انتحار محض.

قال أترسون بجدية: «جئنا بعد فوات الأوان. رحل هايد ولن نعثر أبدًا على إجابات.» ثم رفع المحامي عينيه إلى الخادم واسترسل: «لم يتبق أمامنا الآن سوى العثور على جثة سيدك.»

شرع الرجلان في بحثهما عن دكتور جيكل فبدآ أولًا بالمكتب، ثم نزلا إلى الفناء حيث كان يوجد العديد من غرف التخزين الصغيرة وقبو كبير يمكن البحث فيه، فتفقدوها جميعها بعناية. لم يطأ أحد معظم هذه المخابئ منذ سنوات، وقد عرفا من الأتربة والخيوط العنكبوتية التي تكسو الجدران أنه ما من شخص آخر قد مر من هنا. ولم يعثرا على أي أثر لدكتور هنري جيكل، حيًّا أو ميتًا.

قال أترسون: «ربما جانبنا الصواب. لعله هرب.» ثم ذهب ليتحقق من الباب الخلفي الذي وجده مغلقًا. وعثرا على المفتاح مرميًّا على الأرض بالقرب منه وكان صدئًا بالفعل.

قال المحامي: «يبدو أنه لم يُستخدم منذ حين.»

ردد الخادم في استنكار: «وكيف يُستخدم؟ ألا ترى يا سيدي؟ إنه مكسور. يبدو وكأن أحدهم سحقه تحت قدميه.»

رد أترسون: «أجل. أظن أنك على صواب.» ثم تبادل الرجلان النظرات المرتعدة وقال أترسون: «لا أستطيع أن أسبر غور هذا.»

عاد الرجلان إلى المختبر في سكون، وكلاهما غارق في تفكير عميق. وعندئذ بدآ يتفقدان محتويات المكتب عن كثب. حاول كلاهما ألا ينظر إلى جثة هايد الموجودة على السجادة. لا بد أن هايد كان يمزج المواد الكيميائية معًا على إحدى الطاولات؛ إذ عثرا على العديد من أكواب القياس التي تحتوي على الملح ومواد كيميائية أخرى. خمن أترسون أنهما قد قاطعا هايد أثناء قيامه بإحدى التجارب.

قال بول: «هذا هو الدواء نفسه الذي كنت أحضره له دائمًا. هل كان مستر هايد يقوم بنفس التجارب التي يقوم بها دكتور جيكل؟ لعل الدواء كان مطلوبًا من أجل مستر هايد من الأصل.»

فجأة لاحظ الرجلان أن الغلاية كانت تغلي والماء يندفع منها؛ إذ كانا غارقين في عملهما إلى حد بعيد حتى إنهما غفلا عن الكثير حولهما. بلغ أترسون مقعد الاسترخاء حيث كانت فناجين الشاي مُعدة، ولاحظ كتابًا موضوعًا على الطاولة؛ نسخة من كتاب ديني كثيرًا ما كان جيكل يتحدث عنه. وامتلأت هوامش الكتاب بالكتابة، وصُدم أترسون مما قرأ؛ إذ بدت الكتابة بخط يد جيكل في حين أن الأفكار بدت مناقضة لأفكار الطبيب.

وفي منتصف الحجرة كانت توجد مرآة كاملة الطول، لها إطار خشبي وحامل، وكان الزجاج العاكس على جانبي المرآة. أدار مستر أترسون المرآة بأن أمسك بطرفها الأعلى وقلبه ثم سأل: «لماذا وضع جيكل هذه المرآة في مكتبه؟»

أجاب بول: «ليس لدي أدنى فكرة يا سيدي. هذه المرة الأولى التي أراها فيها.»

التفتا إلى المكتب، فعثر أترسون وسط رزمة الأوراق الموضوعة بعناية على مظروف موجه له، بخط يد الدكتور جيكل. فك المحامي الختم، فسقط منه عدد من المظاريف الأخرى. كان المظروف الأول وصية احتوت على نفس الشروط الغريبة كتلك المنصوص عليها في الوصية الموجودة في خزنة أترسون. على أنه في هذه الوصية كان الوريث هو مستر أترسون وليس إدوارد هايد. نظر أترسون إلى بول، ثم إلى الأوراق مرة أخرى، ثم إلى الجثة الملقاة أرضًا.

قال أترسون: «أنا في حيرة شديدة، لقد كان يتحدث إليَّ بشق النفس في الفترة الأخيرة. أنا ذاهل من هذا التغيير.»

التقط أترسون مظروفًا ثانيًا مكتوبًا بخط يد الطبيب ومؤرخًا بتاريخ اليوم فصرخ: «أوه يا بول، إنه كان حيًّا وموجودًا هنا اليوم. لا بد أنه هرب! لكن لماذا؟»

قال بول: «دعنا نقرأ ما هو مكتوب فيها يا سيدي.»

أخذ أترسون نفسًا عميقًا وقرأ ما بالورقة بصوت مرتفع:

عزيزي أترسون،

عندما تعثر على هذه الورقة سأكون قد اختفيت، لا أستطيع أن أشرح لك في أي ظروف اختفيت، غير أنني واثق من أن هذا سيحدث قريبًا وبطريقة شيطانية. من فضلك اذهب واقرأ الخطاب الذي أرسله إليك لانيون قبل وفاته. إذا كنت ما زلت ترغب في سماع المزيد، افتح المظروف الثالث.

صديقك الحقير والتعيس

هنري جيكل

أعطى بول المظروف الثالث لأترسون الذي كان سميكًا للغاية ومختومًا في مواضع عدة منه.

وضع المحامي المظروف في جيبه وقال لبول: «من فضلك لا تخبر أحدًا بشأن هذا المظروف. لو أن سيدك قد هرب أو مات، يجدر بنا على الأقل أن نحافظ على سمعته. الساعة الآن العاشرة، لا بد أن أذهب إلى المنزل وأقرأ هذه الوثائق في هدوء، وسأعود إلى هنا قبل منتصف الليل، وعندئذ سنستدعي الشرطة.»

غادر الرجلان المكتب. وتأكد بول من أن باب المنزل المؤدي إلى الفناء مغلق ومن ثم لا يستطيع أحد أن يتجول في هذه الناحية. قال أترسون: «من فضلك أخبر برادشو أن يظل في مكانه، لعل دكتور جيكل يعود ونحن لا نريد أن نفقده مرة أخرى.»

مرّ أترسون بالخدام الذين لا يزالون جاثمين بجانب المدفأة الكبيرة في الردهة الأمامية، فنظروا إليه في صمت وهو يمر بهم. خرج أترسون من الباب الأمامي وشق طريقه إلى منزله.